التداولية في النحو العربي

أ.م.د. فيصل مفتن كاظم

كلية التربية الاساسية – ميسان – جامعة البصرة

المقدمة:

يحاول هذا البحث إيجاد مقاربة جديدة لموضوع العلاقة بين النحو العربي وبعده التداولي ، وبالتحديد العلاقة بين متكلم اللغة ومتلقيها ، والمجال التداولي أو مجال التداول النحوي نظرية في الممارسة التراثية ، وهو ما يعني وجود مجالات تداولية كثيرة ومختلفة ، في الممارسة النحوية على مستوى التفاعل الاجتماعي ، والتداول وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين مستخدمى اللغة ومتلقيها ، كما أن المجال في سياق هذه الممارسة هو وصف لكل ما كان نطاقاً مكانيا وزمانيا لحصول التواصل والتفاعل.

ويتميز المجال التداولي من غيره من المجالات الإجرائية بمبدأين أثنين **أولها** مبدأ التطبيق الذي يميزه من المجال الثقافي والاجتماعي ، **والثاني** مبدأ الجمع بين التحقيق والشمول الذي يميزه من المجال التخاطبي والذي يتفق معه في أنه يتعلق بالأقوال والمعارف والمعتقدات المشتركة ويختلف معه في أنس هذه العناصر تستحضر عند المتخاطبين على نحو جزئي وأني في المجال التخاطبي ((بينما يتناولها مجال التداول بوصفها عناصر تداولية

مستعملة استعمالا شاملا ودائما يمد بها مقامات الكلام في جميع أزمنتها و أمكنتها)).

ولكي تجعل الإجراءاتنا النحوية صدى مقنعا لابد من التعريف بالتداولية من وجهة نظر السانية ، إذ يرى الدكتور مجيد الماشطة أن التداولية تعني عند رائدها الأول جارلز موريس : دراسة العلاقة بين العلامات ومفسريها، وبما أن كل مفسري العلامات كائنات حية فمن الصواب القول أنها تعنى بعملية إنتاج اللغة وبمنتجيها، وليس فقط بالنتاج نفسه، أي باللغة، كما تعرف أديسن التداولية بقولها : " إنها تدرس كيف يستخدم المتكلمون اللغة بطرائق لا يمكن التنبؤ بها من خلال المعرفة اللغوية فقط، وكيف يتوصل السامعون إلى الأسس التي يعتمدها الناس في تفاهمهم (٢).

وظلت التداولية من الحقول المنبوذة في الدراسات اللسانية الحديثة . كما يرى الدكتور سمير الخليل)) فهي حقل لساني ملتبس وغائم فيه كثير من التعليم والغموض ... وقد وصفها أحد اللسانيين الإبطاليين بأنها: « صندوق قمامة الأبحاث النسائية ». ويعني ذلك أن مهمة التداولية تنحصر في معالجة المشكلات اللغوية الهامشية التي لم تتناولها اللسانيات في دراساتها الصوتية والتركيبية والدلالية))[١] .

و هناك من ترجم التداولية (بالقصدية) و (التبادلية) تسعى إلى ضبط العملية اللفظية من حيث هي فعل تواصلي يتحقق في موقف سياقي[٢] : ((ولعل الحديث عن التداولية يكتنفه تعليم بحيث يصعب على المتتبع للسانيات

(١) أصول الحوار وتجديد علم الكلام . طه عبد الرحمن : ٢٤٤ .

(٢) هل ستصبح التداولية المنهج النقدي القادم / د. سمير الخليل / صحيفة الأديب / الأديب النقدي صحيفة الأديب – العدد ٥٨ / ص ٢٢ .

المعاصرة أن يميز الحدود الفاصلة بين المجالات اللسانية المعروفة والتداولية . ولقد تألفت علاقات اللسانيات بالتداولية بظهور (اوستين) و (ديكرو) حينما قدموا للغة مفهوما جديدا مرتبطا بالممارسة والاستعمال)) .

والتداولية كما يقسمها الباحثون ثلاثة أنواع:

١-التداولية اللفظية (السانيات التلفظ) وتبناها (شارل موريس) وتعنى بوصف العلاقات الموجودة بين المعطيات الداخلية للملفوظ وخصائص الجهاز التلفظي[١] أي (المتكلم والمخاطب وصفة الحطاب).

٢ -التداولية التخاطبية (نظرية أفعال اللغة):

وتبناها (جين اوستن) و (سيرل) وتعنى بالقيم التخاطبية المضمرة داخل الملفوظ والتي تسمع بالاشتغال كفعل لغوي.

٣-التداولية التحاورية:

وقد نتج تطورها عن استيراد الحقل النسائي للأفكار التي أسها أصلاً الانثرولوجيون وتشتغل بالحوارات، وهي تبادلات كلامية تقتضي خصوصيتها أن تنجز بمساعدة دوال لفظية[٢].

قسم شومسكي الدرس اللساني، كما هو معروف على (المقدرة) و (الأداء)، وتمحورت دراساته النحوية حول المظهر اللغوي للجملة وتحليل المستويات التركيبية ، وهو ما يعرف بالقواعد التوليدية، وإذا كان مجمل اللسانيين أكدوا دراسة المستويات المحسوسة المتجسدة في اللغة ، فقد أشار إلى ذلك من قبل (دي سوسور) في دراساته (العلامات)، وأقر شومسكي بوجود مستويين متمايزين للجملة وهما البنية السطحية أو الظاهرة التي

(١) التداولية اللسانية د. السعيد بو بطاجين (الجزائر) مسحوب من الإنترنت صحيفة الأسبوع / العدد / ٩٢٣ في ١١ / ٩ / ٢٠٠٤ / ص ٤.

(٢) ينظر : هل ستصبح التداولية المنهج النقدي النادم / ص ٢٠ .

تشير إلى المستوى التركيبي أو النحوي لها، والبنية العميقة التي ترتبط بالدلالة، وكمحصلة للدرس اللساني النظري طرأ تحول جوهري على النظر إلى (اللغة) وآليات دراساتها وتحليلها فأصبحت اللغة لدى (دي سوسر) وجماعة براغ والبنيويين الأمريكيين)) نظاما في العلاقات ، أو بمعنى أدق مجموعة من الأنظمة المترابطة فيما بينها ، إذ لا تتمتع العناصر كالأصوات والكلمات بأي قيمة مستقلة خارج العلاقات التي تربطها بالعناصر الأخرى ، فيظهر هذا النظام النحوي المضمر في كل لغة من اللغات وعند كل المتكلمين بهذه اللغة))[١].

وقد أفادت التداولية في تناميها في انشقاق بعض تلامذة شومسكي وائد المدرسة التحويلية لتطرفه في انتهاج الشكلية المجردة، وأكدوا وجوب استناد الوصف النحوي إلى (المقدرة) فقط أو الإمكانية اللغوية أو المعرفة اللغوية الموجودة في ذهن المتكلم وقد استبعد الأداء قال شومسكي : " أن الأساس هو النحو وألحق الدلالة والصوت به، أما المنشقون مثل الدلاليين التوليديين فقد اتخذوا من الدلالية قاعدة لوصفهم اللغوي وبنوا مكوني النحوت والصوت عليه، والمهم أن التداوليين دعوا إلى الاعتماد على الأداء اللغوي أساسا للدرس اللساني ونأوا عن المقدرة اللغوية لكونها مجرد تجريد ((فاللسانيات دراسة اللغة بحد ذاتها، أما التداولية فدراسة اللغة كما يستعملها الناطقون بها ضمن مقاصدهم وتحديداتهم))[٢] .

(١) مدخل إلى السيموطقيا . نصر حامد أبو زيد وسيرا قاسم / مقالات مترجمة ودراسات : ص ١٥ .

(٢) ما التداولية ؟ د. مجيد الماشطة / محور الأديب النقدي ((التداولية بوصفها منهجا ..)) ، ص ١٧ .

أصول المجال التداولي في النحو

يقوم المجال التداولي تراثيا على ثلاثة أصول أو أقسام هي : العقيدة واللغة والمعرفة[١] وهي متداخلة فيما بينها وظيفيا باعتبار الاستعمال، إذ لا تتعين الوظيفة التداولية لكل قسم إلا إذا استعمل باعتبار الاستكمال ، حيث لا تكمل الوظيفة التداولية لكل قسم إلا إذا تعلق بالقسمين الآخرين، كما تتفرع هذه الأصول على مبدأ التفضيل التداولي العام، وهو الذي يقضي تراثياً بأفضلية العقيدة الإسلامية ، وأفضلية اللغة العربية و وأفضلية المعرفة الإسلامية العربية، وقد وظفنا نظرية المجال التداولي في النحو في هيكلها العام – ليس لأنها تمدنا بجهاز ضخم مفاهيمي صوري ومنهجي يمكننا من قراءة موضوعنا الذي نحن بصدده حسب، لأن النظرية تمثل لحظة من لحظات الوعى))[٢]. ونحن في بحثنا هذا الذي تعده إسهامة متواضعة في بناء صرح اللسانيات التداولية العربية ((فاكتشاف الأبعاد التداولية للنحو فتح آفاقا أرحب ، وأنتج أسئلة جديدة ستكون مسوعاً للاعتراف بالتداولية : كأحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة))[٣] لنحاول أن نجد العلاقات النحوية في مجالها التداولي التواصلي الواقعي.

جاءت الدراسات التداولية لتبتعد كثيرا عن نظريات شومسكي كما قلنا بدراسة (المعنى) المتداول للجملة ويفترض العالم اللساني (لينش) أن دراسة النحو النظام الشكلي لمجرد اللغة (والتداولية) مبادئ اللغة في التداول والتخاطب هما حقلان متكاملان في الدراسات اللغوية وليس

(١)النحو العربي والمنطق الأرسطي / دراسة حضرية تداولية / الازهري الريحاني ١٨.

(٢) البعد التداولي عند سيبويه / مقبول ادريس / مجلة عالم الفكر / المجلد ٣٣ في يوليو ما ص ١٤٦ .

(٣) أصول الحوار وتجديد علم الكلام : ص ٢٤٤.

متعارضين تماما . ويعتمد التفسير التداولي على المظاهر الاتصالية للغة، فبينما تكون التفسيرات النحوية شكلية أساسا تتحرك التداولية على المستوى الأدائي للجملة ، ويعرف (المعنى) في التداولية بالإحالة على المتكلم أو مستخدم اللغة بينما المعنى دلاليا يعرف بأنه أحد خصائص الجملة في لغة معينة بصورة مجردة عن أي موقف معين أو متكلم أو مستمع))[١].

وهذا التصور التداولي للمعنى لا يفترض تلازما بين (الشكل النحوي المنطوق ، وما يحققه من حدث كلامي ، فالجملة المتماثلة نحوياً يمكن أن تعبر عن أحداث كلام متعددة ، وبالمقابل فحدث كلام معين يمكن تحقيقه بأكثر من شكل ، وبذلك يصبح المعنى كامنا في السياق وليس حقيقة داخلية للجملة كما يرى الدكتور معن الطائي)[٢] ، فقد أعطت التداولية (زخما للسياق بمعاملته سياق مستعمل اللغة وليس سياقاً بحد ذاته وسياق ليس مجرد عرض للمنظور الجملي كما هو الحال لدى (فرث) و (هاليدي) إنه الموقف الاجتماعي الذي يتم الكلام فيه))[٣]. ولذا يتحرك السياق التداولي ويتغير كل لحظة، أنه فعال مثل الناس، أما الوصف اللساني للسياق فجامد لا حيوية فيه لأنه لا يصور التطور بين مستعملي اللغة ، ومع اتساع المعلومات عن النحو وعلم الصوت وعلم الدلالة في لغات متعددة أضحى واضحاً أن ثمة ظواهر محددة لا يمكن وصفها على نحو طبيعي إلا بالاستناد إلى المفاهيم السياقية، فمن جهة هناك العديد من القوانين النحوية التي تبدو إنها لا تتحدد بصورة صحيحة إلا إذا أشرنا إلى

(١) التاويل بين السيميائيات والتفككية مصدر سابق / ص ١٧٩ .

(٢) ينظر التداولية منهجاً نقديا / محور الأديب النقدي (التداولية بوصفها منهجاً .صحيفة الأديب العدد ٥٨ / السنة الثانية ٢٠٠٥ م : ص ٢٢.

(٣) التأويل بين السيمينيات والتفكيكية / امبرتو ابكو / ص ١٨٧.

الظروف التداولية التي ترافقها[1]، فمثلاً حينما نقول هذه الجملة : (الجو حار، وهي جملة خبرية وتتكون من مسند ومسند إليه، أو من مبتدأ وخبر ، فلا يمكن أن نفهم هذه الجملة على بساطتها، إلا إذا الظروف المحيطة بها وفي أي سباق قبلت، هل قبلت في أفريقيا ؟ أم قبلت ونحن في غرفة مزدحمة والشبابيك مغلقة ؟ أم قيلت استنادا إلى حديث سابق مع متكلم حول مكان ما قال بأنه بارد؟ أم قيلت في سياق سياسي او جدل اجتماعي .. ؟ او .. او .... فلا يمكن أن ندرك المقصد الحقيقي لهذه الجملة إلا بمعرفة السياق الذي قيلت فيه، وقد تتحول إلى جملة إنشائية كما في الاحتمال الثاني أعلاه بمعنى (إفتح الشبابيك) أو (شغل المروحة). فهي فعل إنشائي.

وإذا أردنا أن تحدد علاقة التداولية بالحقول اللسانية الأخرى فسنجد أن التداولية لها نظامها الخاص أو ميزتها المختلفة عن علم الدلالة والنحو وتحليل الخطاب واللسانيات النفسية والأسلوبية، ولكننا سنتوقف عند علاقتها بالدلالة والنحو لكي لا يتسع البحث إلى حدود أخرى أبعد من الهدف الذي تسعى إليه فعلم الدلالة يكاد يكون اقرب الحقول إلى التداولية إذ يدرس كلاهما تعليم المتكلم وتأثير التركيب النحوي في السامع، فعلم الدلالة يدرس المعنى في إطار التركيب اللغوي للجملة أي ليس بالضرورة من خلال السياق، على حين تدرس التداولية كما يتحدث في السياق الذي ورد فيه .

إن وحدة التحليل كما يرى الدكتور مجيد الماشطة في علم الدلالة هي المعنى ، أي معنى الكلمة والعبارة والتركيب الأوسع، ويمكن القول إن وحدة التحليل في التداولية هي وظيفة اللغة ، ولتوضيح الفرق دعنا ننظر في هذا المثال هناك حصان في الحديقة ((تهتم الدلالة بحقيقة إن الحصان

(١) ينظر : ما التداولية ؟ – مجيد الماشطة مصدر سابق / ص ١٧ .

وهو حيوان موجود في الحديقة وليس خارجها ، أما التداولية فتهتم بالمعنى الإضافي الذي أراده المتكلم حين قال هذه الجملة ضمن سباق معين أي العرض الكامن في ذهن هذا المتكلم ، ربما يقصد تحذير الأطفال أو يتحدث مع مخاطب ، ويطلب منه ركوب الحصان عند الخروج ، أو يقصد أن الحصان يأكل زرع الحديقة فلا بد للمخاطب من طرده ، أو قد قيلت هذه الجملة على لسان لص يخاطب صديقه في نية السرقة .. الخ[١]

تدرس الدلالة إذا المعنى العام الثابت المشترك لكل السباقات المحتملة وتدرس التداولية الحالة التي تحيط بالمعنى الثابت و تتغير من سياق إلى آخر .. أما النحو فيرى اللغة عددا لا محدوداً من الجمل ، وبدلا من قدرة شومسكي اللغوية العمومية تهتم التداولية بتحديد مكونات القدرة التواصلية ، وتذهب إلى عدم تطابق الصيغة النحوية وحدث الكلام ، إذ لا علاقة تلازم بين الشكل النحوي للجملة وما تحققه من حدث الكلام فالجملة وحدة لغوية تتحدد بعناصرها الشكلية ولكن التداولية تدرسها بوصفها وحدة للتواصل فهي الأداء وليس القدرة، ومثلما درست النظريات اللسانية مستويات الجملة التركيبية والصوتية الدلالية للكشف عن مجموعة القوانين العامة التي تتحكم في طبيعة العلاقات بين الكلمات في الجملة، توجهت الدراسات التداولية نحو السياق للكشف عن مجموعة القوانين العامة التي تتحكم بتحديد دلالة المنطوق سياقياً ، وقد حاول كل من (جرابس) و (ليتش) وضع قواعد للتأتب و المخاطبة والمجاورة مستمدة من السياق الاجتماعي والثقافي وتتجسد لسانيا بالمنطوق، وإن أي خرق أو كسر المجموعة القوانين السياقية ينتج عنه عدم

(١) ينظر : ما التداولية؟ مصدر سابق: ص ١٨.

التماثل بين المنطوق والسياق وهو ما يسمى بانعدام الملاءمة السياقية كما يذكر الدكتور معن الطائي[١] إن ما يحدث في حالة غياب الملاءمة السياقية هو خطأ تداولي.

وهذا الخطأ لا يمزق قوانين صوتية أو نحوية أو دلالية، وإنما يحصل نتيجة خرق أحد مبادئ محدّدات السياق الاجتماعية والثقافية، ولكي بتوافر عنصر التطابق بين المنطوق والسياق يجب تأمين شروط عدة من تعطي للمنطوق قوته الأدائية فالكلام في للتداولية ليس مجموعة جمل متراصفة فيما بينها ولكنه (حديث). والتداولية بذلك نقلت حفل دراستها من القدرة إلى الأداء بحسب تقسيم شومسكي كما أشرنا فيما سبق.

فالتداولية أولت أهمية كبيرة للظروف غير اللغوية عن صحة التعبير والمتعلقة بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم ومسوغات الاستعمال والأفعال اللغوية أو بعبارة التوليدين أصبحت جزءاً من دراسة الأداء اللغوي.

اللحن النحوي في المفهوم التداولي

جرت العادة أن ينسبب اللحن (الخطأ) أو يضاف إلى اللغة ، ويقصد به غالبا خرق جانبها النحوي أو الصرفي في بعض الأحيان، وقد يكون الخرق مقصورا لأسباب أدبية ، وهذا في رأيي ليس خرقا للمنظومة اللغوية ، وإنما هو خرق مقصور للجملة المعيارية ، وقد يكون ذلك الخرق كامناً في جهل المتكلم في المنظومة اللغوية ، وهذا خرق مؤذ للمنظومة لا يسمحبه ولا بد من تصحيحه وضبطه ، وقد يتوسع اللحن ليشمل مستويات عدة من بينها المستوى التداولي التكلمي ومرجعي في هذا الطرح كلام سيبويه ونظرته النحوية في كتابه ، ومن ذلك ما قاله في ((باب الاستقامة من

(١) التداولية منهجا نقديا / مصدر سابق : ص ٢٢ .

الكلام والإحالة[١] ((الذي عده بعضهم بابا مجاله الدلالة وسياق التلفظ في بعد مجرد[٢]. يقسم سيبويه الكلام على النحو الآتي:

١-كلام مستقيم حسن-------- أتيتك أمس.

٢-كلام محال---------- أتيتك غدا.

٣-كلام مستقيم كتب ----------حملت الجبل.

٤- كلام مستقيم قبيح ---------- كي زيد يأتيك.

٥ - محال كذب سوف اشرب ماء البحر أمس إن الكلام المذكور في ٤ و ٥ فيه خرق نابع من الخروج على المنظومة اللغوية وهو مستقبح نحويا ولغويا ، ولا بد من تصحيحه ورفضه ، أما ما ورد في ٣ أو ما أسماه سيبويه (مستقيم كذب) فهو انزياح مقبول وخرق للجملة المعيارية مع الاحتفاظ بقواعد المنظومة اللغوية ، فالجملة صحيحة نحوياً ، ولكن فيها خرق دلالي ، وهو ما نسميه باللحن التداولي لا تتطابق فيه النسبة الكلامية والنسبة الواقعية الخارجية والنسبة العقلية كما يعبر البلاغيون ومن بعدهم التداوليون يقول الشارح أبو سعيد السيرافي : وإنما خص المثالين ٣ و ٥ بالكذب لأن ظاهرهما يدل على كذب قائلها قبل التصفح والبحث ، وإلا فكل كلام تكلم به وكان يخبر على خلاف ما يوجبه الظاهر فهو كذب ، علم أو لم يعلم ، كقول القائل : لقيت زيدا اليوم . واشتريت ثوباً ، إذا لم الأمر على ما قال فهو مستقيم كذب[٣] إن الكلام المستقيم الكتب كما ورد في المثال الثالث تركيب انتظمت عناصره على وفق نسق لغوي وقواعدي مقبول يحافظ على الرتب والمحلات وآثار

---

(١) الكتاب : ١/٢٥ .

(٢) ينظر ملاحظات حول رسالة سيبويه المنصف عاشور ، حوليات كلية الآداب / تونس ١٩٨٩ : ص ١٨١.

(٣) شرح الكتاب للسيرافي / مخطوط في المكتبة الوطنية / دمشق / ص ١٣٩ .

الإعراب ، غير أن اللحن يمكن أن يأتيه من جهة دلالة ملفوظه كما أشرنا سابقا بمعنى علاقته بالواقع، إذ هو إما صادق وإما كاذب بناء على المنطق الثنائي القيمة، كما هو معروف لدى بعض التداوليين

وينقل الشنتمري – على ما أظن – كلام أبي سعيد السيرافي من دون الإشارة إليه ويضيف)) فالمستقيم في طريق النحو هو ما كان على القصد سالماً من اللحن ، فكان مستقيماً من هذه الجهة ، وهو مع ذلك موضوع في غير موضعه ، فهو قبيح من هذه الجهة))[١] ، ويستدرك بتفريع جديد ينسبه إلى الأخفش هذه المرة فيقول ((وفيه الخطأ وهو مالا يتعمده نحو قولك : ضربت زيدا، هذا من جهة اللفظ مستقيم، فيقال فيه على قيام ما مضى : مستقيم كذب ومستقيم قبيح ، إلا أن سيبويه لم يذكر هذا القسم لأن لفظه لا يدل على خطأ وإنما ظاهره أنه صواب))[٢]

إن المحال هو ما يناقض ظواهر الطبيعة ، أو يخالف وقوانينها الثابتة ، أو قد يكون غير مستوف لشروط الوجود الواقعية وهو ما يقره التداوليون لكونه صحيحاً مستقيما نحوياً ، ولكنه محال واقعياً ، وعليه يدخل باب الخرق الأدبى بل التداوليون لا يؤمنون إلا بمقصدية المتكلم في علاقته بالسامع وإن كان الكلام فيه عدم استقامة في الظاهر كما ورد سابقا، ونجد المحال لدى سيبويه أن تنتقض كلامك بكلامك بما يشكل خرقا للمنظومة اللغوية أي الوقوع في اللحن النحوي مثل قولك (أتيتك بعد غد) لأنه يجمع متناقضين الماضي والمستقبل وهو مناف للقواعد النحوية والفهم .

(١) النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي في لفظه وشرح أبياته وغريبه / تحقيق رشيد بلحبيب طا / المغرب : ص ١/٢٠٤ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١/ ٢٠٤.

إن الاستقامة والكذب جهتان متغايرتان وليستا بالضرورة متلازمتين شأنهما شأن الاستقامة والصدق، وذلك لاختلاف المتعلق، يقول الدكتور طه عبد الرحمن : (عليه يكون كل قول معتقد مستقيماً سواء صدق أو لم يصدق لأن الصدق هو مطابقة الاعتقاد للخارج ولأن الكذب هو مفارقة الاعتقاد للخارج. لأن الصدق والكذب تابعان للاعتقاد فإذا لم يكن القائل معتقداً لقوله ، فلا يمكن الحكم عليه لا صدقا ولا كذبا، إذ ليس الصدق سوى موافقة الاعتقاد للواقع ، والكذب سوى مخالفة هذا الاعتقاد للواقع بدليل وجود الأقوال المجازية ، فلو كان الصدق والكذب لازمين للقول بما هو كذلك لكان القول المجازي كاذبا على الدوام حيث إن معناه يخالف ظاهره وإذا فرضنا أن الغالب على المكان الطبيعي أن يكون مجازيًا ، فقد صار التواصل به في حكم التكاذب ، وصار التعامل به في حكم التخاتل ، وليس الأمر كذلك ، وما ذلك إلا لأن الأصل في تصديق القول أو تكذيبه هو الاعتقاد الذي تحته)[١]

ورأي الدكتور طه عبد الرحمن مخالف لمن ذهب إلى ربط الخبر بالواقع وهو ما ذهب إليه النظام ومن تابعه ، قال النظام ((صدق الخبر مطابقته لاعتقاد المخبر ولو خطأ ، وصدق المتكلم مطابقة خبره للاعتقاد وكذبه عدمها ، وأصبح النظام بقوله تعالى ((وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لكاذبون)) (المنافقون: من الآية :١)، كذبهم في قولهم ((إنك لرسول الله)) (مع مطابقته للخارج ، لأنه لم يطابق اعتقادهم والجواب إن المعنى لكاذبون في الشهادة))[٢] ، ولنفترض إن أحدهم قال لك : إن مصر تقع في قارة أوربا

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : د. طه عبد الرحمن : ص ٥٢-٥٣.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون / محمد على التهانوي / تحقيق : نطقي عبد البديع : ٤/٢٥٦ ، وفي تفسير الآية ينظر ما قاله الزمخشري في الكشاف : ٤ / ٥٢٦ .

وإن النيل يجري من الشمال إلى الجنوب ، وأن العراق يقع في قارة أفريقيا ، وإن الشاعر محمد مهدي الجواهري درس الطب ونال شهادة فيه عام ٢٠٠٥ . ومن المؤكد أن هذه الجمل مستقيمة نحوياً لمراعاتها ما يقتضيه النحو عموماً على المستوى التركيبي بيد أنها كاذبة أو لاحنة تداوليا لما علم من أن مصر تقع في قارة أفريقيا ، وأن نهر النيل يجري من الجنوب إلى الشمال جغرافيا وواقعيا وأن الشاعر محمد مهدي الجواهري لم يقرب الطب ولم يفقه شيئا فيه وأنه توفي عام ١٩٩٤.

واستنادا إلى ذلك نقول حين ينتج المتكلم ملفوظا كاذبا فإنه يتلفظ بجملة لها على العموم قوة إنجازية إثباتية ومضمون يعتقد المتكلم خطأه ، وهو عندما يعتقده خطأ فلأنه قادر على تأويله دلاليا ، يعني أنه قادر على تحديد شروط الصدق لهذه الجملة ، وهكذا فالتحديد الكامل لشروط الصدق بسيرورات تداولية وينتمي إلى سيرورات السانية وتداولية لتأويل الملفوظ ويعتقد بعض الباحثين ولاسيما أصحاب الدلالة التصويرية إن الصدق نسبي بالنظر إلى فهمنا للظواهر ، إذ يرتبط صدق الجملة بالطريقة التي تفهم بها العالم حين نسقط عليه اتجاها معينا.

الصحة النحوية في المفهوم التداولي

يتحدث أهل الصناعة من النحاة عن الإعراب التقديري أو المحلي والإعراب بالحروف أو الحركات أو بالحذف ولا خلاف عندهم في إحالة الإعراب على المستوى الدلالي ، فالإعراب أيانة للمعاني المختلفة[١] والإعراب علم المعانى[٢] ، والأصل في الإعراب أن يكون للفرق بين

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش : ١/٧٨ .

(٢) ينظر الأشباه والنظائر للسيوطي : ١/ ١٩١ .

المعاني[١] ، غير أنا نرى فضلا عن ذلك أن الإعراب لا يخلو من أسباب وصلات مع المستوى التداولي ، وأعنى مع الجانب الدلالي يدخل الجانب التداولي كما أشرنا إليه في مقدمة بحثنا هذا واعني الظل المضاف للدلالة على مستوى المتكلم في إطار السياق المرافق له (وكثيرا ما استعان سيبويه على توضيح معنى التركيب بوصف الظروف المرافقة للتلفظ بالقول كوصف الظواهر الصوتية أو تحديد العلاقة بين المتكلم والمخاطب أو ذكر أسباب التلفظ بالقول إلى غير ذلك مما ذكره سيبويه عند دراسته لقضايا الحذف أو بيان المعاني المختلفة التي تدل عليها الصيغة الصرفية الواحدة بسبب اختلاف المقام)[٢]، والسياق في المفهوم التداولي هو ربط الكلام (الملفوظات) بسباقه النصي واللساني السابق واللاحق لأن اللغة ليست حسابا منطقيا دقيقا لكل كلمة معنى محدد ، ولكل جملة معنى محدد فالكلمة الواحدة قد تعددت معانيها بتعدد استخداماتنا لها في سياقات مختلفة وتعددت معاني الجملة الواحدة حسب السياق الواردة فيه ، ولهذا فالمعنى لا ينكشف في الفكر التداولي إلا من خلال سياق الوحدة اللغوية ، أي وضعها في سياقات مختلفة ، و عليه تكون دراسة المعاني استنادا إلى سياقات ومواقف وردت فيها حتى ما كان فيها غير لغوي كالزمان والمكان مثلا ، وقد اقتبست التداولية مفهوم السياق من النسائيات الاجتماعية وسعت إلى استثماره وتوظيفه ، والسياق التداولي خاضع لأنماط السياق منه السياق اللغوي والعاطفي والسياق الثقافي ، وإن تأثير السياق النحوي مقنوع جدا ويختلف من جملة إلى أخرى بحسب المقام الذي تدور فيه الملفوظات وتداوليا أنه لما كان فهم معنى الكلام

---

(١) ينظر همع الهوامع للسيوطي : ١/٩٣ .

(٢) التركيب في كتاب سيبويه نظام الجملة وأصول التقدير / محمد الموفي / اطروحة دكتوراه / غير مطبوعة / جامعة محمد الخامس / ص ٥٠٤ .

متوقفاً على معرفة سياقه فإن الإعراب نفسه هو آلية لتحصيل المعنى ويقوم على السياق أيضا ، ونكاد نقول أنه يتغير بتغيره وهذا ما نبه إليه ابن هشام فيما يحترز منه المبتدئ في صناعة الإعراب لقوله (ربما مر به فأعربه بما لا يستحقه ونسي ما تقدم له)[١] أي نسى سياقه ، وقد يأتي الخلل أيضا حينما يراعي العرب معنى صحيحا وهو لا ينظر في صحته من جهة الصناعة ، وهذا مثال يذكره صاحب المغني على ذلك هو قول بعضهم في (ثمودا فما أبقى (إن ثمودا مفعول مقدم وهذا يمتنع لأن ما بعد ((ما)) النافية لا يعمل فيما قبلها ، وإنما هو معطوف على ((عادا)) هو بتقدير (أو أهلك ثموداً)[٢] ، ومثلما وقع القدامي في بعض التقدير وقع المحدثون كذلك في عدم الأخذ بسياق الملفوظ وإخضاع الإعراب للمعاني النحوية وما يتوفر فيها من مقصدية ، يقول سيبويه ناقلا عن شيخه الخليل الفراهيدي ما يحصي من بعض التراكيب التي تقع فيما نحن فيه من حديث (فإن التحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب ، وذلك إن رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال أنا عبد الله منطلقاً ، وهو زيد منطلقاً ، كان محالاً ، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالإنطلاق ولم يقل هو ، ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية لأن (هو) و (أنا) علامتان للمضمر ، وإنما يضمر إذا علم أنك قد تجهله فيه فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسنا)[٣]، إن النص الذي أوردناه يعكس أحد أرقى إنجازات النظرية النحوية في القبول الإعرابي والتداولي للجمل : أنا عبد الله منطلقا . وهو زيد منطلقا ففي الوقت الذي

(١) مغني اللبيب : ص ٨٨١.

(٢) المصدر نفسه : ٢٩٨.

(٣) الكتاب : ٢/ ٨٠ – ٨١.

يعرف فيه المخاطب من تعني لا حاجة إلى ذكر الظاهر (عبد الله) و (زيد) لان الإضمار فعل قصدي داخلي يستبطن اتفاقاً ضمنيا بين المتكلمين على المعنى ، أما حين كون السياق غير واضح ، والمقام غير المقام المطلوب حيث لا يوجد اتفاق ولا تواطئ في المعنى بل هو مجهول لدى المخاطب حينئذ يتعين التصريح والبيان والتوضيحكان سيبويه يهتم بمقصدية المتكلم في السياق الجملي ، وهو ما تبنته التداولية من ضمن ما تبنته من أفكار كثيرة، ولكي يظهر الفرق جليا يضع سيبويه القاعدة النحوية في التداولية في آن واحد يقول : (وإذا ذكرت شيئا من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن تظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل أو صنعة غير العمل ، ولا تريد أن تعرفه بأنه (زيد) أو (عمرو) ، وكذلك إذا لم توعد أو تفخر أو تصغر نفسك ، لأنك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنه قد جهل أو تنزل المخاطب منزلة من يجهل فخراً أو تهديدا أو وعيدا ، فصار هذا لتعريفك إياه باسمه)[1]، إن عزل الجملة تداوليا عن سياقها هو بمنزلة فصلها عن قلبها فكم من المواقف والجمل التي مرت بنا في أثناء الإعراب سواء أكانت آيات قرآنية أم شواهد شعرية اضطربت الآراء فيها وضاعت في خضم الجدل العقلي ، ومرد ذلك كله إنك عزلته عن سياقاته العامة في القرآن الكريم أو في القصيدة ، والسياق لا يختص بالجانب اللغوي فحسب بل يتعداه إلى مستوى آخر أكبر وأهم وهو (السياق المقامي) ، وفكرة المقام هذه هي المركز الذي تدور حوله التداولية ومن قبلها علم الدلالة الوصفي وهو الأساس الذي يقوم عليه الجانب الاجتماعي من وجوه المعنى) وتشير لفظة القدرة التداولية الاجتماعية إلى ملائمة المعنى: ما إذا كان حدث كلام معين مناسبا ، فتشير القدرة اللغوية

(١) الكتاب : ٢/٨٠.

التداولية إلى التحقق اللغوي للمعنى أي إلى أي مجال يتمثل معنى ما بشكل مناسب في سياق لغوي اجتماعي معين)[١] وقد حاول كل من (جرايس) و (ليتش) وضع قواعد للتأذب والمخاطبة والمحاورة مستمدة من السياق الاجتماعي والثقافي تتجسد لسانيا بعدم التماثل بين المنطوق والسباق و هو ما يسمى بانعدام الملاءمة السياقية إن ما يحدث في حالة غياب الملاعمة السياقية هو (خطأ تداولي) وهذا الخطأ لا يمرق قوانين صوتية أو نحوية أو دلالية وإنما يحصل نتيجة خرق بين المنطوق والسياق ، يجب تأمين شروط عدة تعطى للمنطوق قوته الأدائية فالكلام بالنسبة للتداولية ليس مجموعة جمل متر اصفة مع بعضها ولكنه حدث[٢]، والتداولية تهتم بمستويات ثلاثة وبالسياق الذي يحيط بها وهي:

١-حدث القول : أي حدث تقوه جملة بمعنى ما أو بالإشارة إلى شخص ما او شئ ما قبل قولك : قال لي ادرسه ، والهاء يعود على الكتاب.

٢-حدث الإنجاز : ما ينجز يقول شئ ما أو الحدث الناجز بنتيجة بقوة المتكلم بشئ كالرهان والوعد والترهيب والتحذير كقولك أمرني بقراءته.

٣-حدث التأثير : يتحقق التأثير بقول شئ ما أي تأثير تفوه المتكلم في السامع الذي قد يصبح مرتاحاً أو مقتنعاً كقولك : أمتعني بقراءته.

وزاد التداوليون أمورا أخرى يجب أن تتوافر في السياق منها : (قواعد اللياقة) و (التوجيهات) و (التعهدات) و (المعينات)، فإذا نطق أحدهم بجملة (أغلق الباب) فهذا يجب أن يتضمن على صعيد السياق أن الشخص

---

(١) ما لتداولية / مجيد الماشطة مصدر سابق : ص ١٧ .

(٢) التداولية منحاً نقدياً مصدر سابق : ص ٢٣ .

المتكلم أعلى رتبة من المستمع ، وأن الباب في الغرفة مفتوح أساساً ، وأن المستمع (المخاطب) بوضع جسدي يمكنه القيام بفعل علق الباب ، إذ غياب أي واحدة من تلك المحددات السياقية سيحدث من عدم التطابق بين المنطوق والسياق ، ثم يحدث ما يسمى بالانزياح السياقي ، فمثلا في حالة التطابق السياقي يصبح المنطوق اغلق الباب جملة فعلية أمرية اعتيادية وفي حالة كون المتكلم اقل رتبة اجتماعية من المخاطب حسب ظروف اللياقة فعندها تصبح جملة اغلق الباب ذات مقصدي خاصة تشير إلى خرق في قواعد التأدب. وتدل على نوع من الإهانة والتحقير ، أما إذا كان الباب مغلقاً أساساً قبل لحظة النطق بالجملة عندها يشير الخرق السياقي إلى انحراف دلالة الجملة ، نحو قول ذي مقصدية مغايرة لغلق الباب ، وقد يكون مقصد المتكلم غلق الموضوع[١] وتوقف عن الحديث).

ويذهب الدكتور طه عبد الرحمن إلى أن القول الطبيعي مجرداً عن مقامه تصير محاملة كثيرة ولا يتعين واحد إلا بتعيين المقام حتى انه يصح الإدعاء بأن الأصل في القول الطبيعي أن تتعدد معانيه إلى يثبت بالدليل خلاف ذلك ، وإذا كان كذلك، فقد وجب أن تكون صورة الممكنة متعددة ، وإلا ينحصر تقويمها في حتمية واحدة)[٢] .

وعليه يمكن القول أن النحو غير مستقل بنفسه بكونه مكونات لغوية مجردة ، وان قوانين اللغة المنتجة للجمل مدعوة ، لكي تمتلك الصحة الدلالية والتداولية على مستوى الكلام أن ترتبط بعناصر خارجة عنها . ونفترض أيضا أنها بذلك ليست كلاماً جامداً لمعنى مطلق أو مجرد بيد أنه معنى يريد المتكلم أن يعنيه من جهة ، وأن يعبر عن موقف محدد في إطار

(١) التداولية منهجاً نقدياً مصدر سابق : ٢٣.

(٢) التكوثر العقلي : ١٥٢ .

سياق محدد وهذا ما أكده بعض النحويين المحدثين مثل الدكتور فاضل السامرائي وقبله الدكتور مهدي المخزومي وآخرون ، باعتبار الجملة بنية جامدة حبة ومتداولة بين متكلم ومخاطب ، يراعي فيها المتكلم يأخذ اهتمام مخاطبه فيقدم أو يؤخر ويوجز إن كان المقام يقتضى الإيجاز لقد أولت التداولية عناية كبيرة للمتكلم والمخاطب انطلاقا من الاعتقاد بأن الخطاب بتوجه من مرسل إلى مرسل إليه أو من متكلم إلى مخاطب ، ناهيك عن النظر إلى التفاعل اللساني وغير اللساني الذي يوجه الكلام ويحدد مساره إلى درجة ذهب معها (لينش) إلى أنه لا يمكن أن ندعي فهمنا للكلام من دون استحداث ظروف إنتاجه المحيطة به ، لا سيما عنصر المتكلم والسامع اللذين اعتبرها ركنين لا غنى عنهما ، ومظهرين مهمين في الحالة التكلمية ، وكما يقول الدكتور طه عبد الرحمن " فالكل يعلم أن الخطاب يفترض وجود مخاطب شخصيته يجب أن تتوافر حتى يمكن للمواصفات أن تعمل[١] .

و الشيء نفسه يقال عن المتكلم نفسه (صانع الكلام) ، وتجدر الإشارة إلى أن علماء البلاغة العرب قد اجتهدوا في هذا ولاسيما (علم المعاني) وفي أدوار المتكلم والمخاطب في نجاح العملية التواصلية وتوجيهها وتحديد مسارها الدلالي والتداولي ، ونجد الأصوليين نجدهم لا ينظرون إلى الخطاب مجردا عن صاحبه ومتلقيه ، وعن وجوه العلاقة بين صاحب الخطاب والمخاطب ، بل نظروا إليه كما هو متداول فعلا يقول الدكتور طه عبد الرحمن : " لا يكون كلاما حتى تحصل من الناطق إرادة في توجيهه إلى غيره ، وما لم تحصل منه هذه الإرادة ، فلا يمكن أن يُعد متكلماً حقاً

(١) الحوار والاختلاف خصائص وضوابط مجلة قضايا السلامية معاصرة / العدد ١٦ /١٧/٢٠٠١ ص ٢٤٠.

حتى وإن صادف ما نطق به حضور من يتلقفه لان المتلقف لا يكون مستمعاً حقاً حتى يكون قد تلقى إليه بما يتلقف مقصوداً بمضمونه هو أو مقصوداً به غيره ، بوصفه واسطة فيه أو قل متى يدرك رتبة المتلقي))[1].

ولهذا نرى سيبويه يمنع بعض التراكيب لما فيها من لبس محتمل وإيهام للمخاطب بخلاف المقصود من خلال دور المخاطب (المتلقي) في العملية التخاطبية ، فيرى المخاطب أن الدار كلها ذراع ، ولا يجوز أن تقول : بعت شائي شاة شاة ، وأنت تريد بدرهم ، فيرى المخاطب انك بعتها الأول فالأول على الولاء ... ولا يجوز تصدقت بمالي درهما ، فيرى المخاطب أنك تصدقت بدرهم واحد))[2] .

(١) التكوثر العقلي : ٢١٤ .

(٢) الكتاب : ١/٣٩٣ .

المصادر:

١-أصول الحوار وتجديد علم الكلام / طه عبد الرحمن / الدار البيضاء المؤسسة الحديثة للنشر/١/ ١٩٨٧.

٢-الأشباه والنظائر/جلال الدين السيوطي/تحقيق الدكتور طه عبد الرؤوف سعد / شركة الطباعة الفنية المتحدة / القاهرة/ ١٩٧٥.

٣-التاويل بين السيميائيات والتفككية / امبرتو إيكو / ترجمة سعيد بنكراد / المركز الثقافي العربي / المغرب / ط/ ٢٠٠٠.

٤-التركيب في كتاب سيبويه / نظام الجملة وأصول التقدير / محمد الموفي / اطروحة دكتوراه غير مطبوعة / جامعة محمد الخامس.

٥-شرح الكتاب للسيرافي / مخطوط في المكتبة الوطنية/ دمشق:

٦-شرح المفصل لابن يعيش عالم الكتب / بيروت / د . ت.

٧-الكتاب سيبويه / تحقيق عبد السلام هارون / دار الكتب العلمية / بيروت / ط.

٨-كشاف اصطلاحات الفنون / محمد علي التهانوي / تحقيق لطفي عبد البديع وزارة الثقافة والإرشاد / مصر ١٩٦٣.

٩-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي د. طه عبد الرحمن | المركز الثقافي العربي ١٩٩٩.

١٠-مدخل إلى السيموطقيا / نصر حامد أبو زيد وسيرا قاسم / مقالات مترجمة ودراسات / دار إلياس العصرية/ القاهرة ٢٠٠٣.

١١–مغني اللبيب عن كتب الأعاريب / تحقيق مازن المبارك ومحمد على الحمد / القاهرة . د. ت.

١٢ النحو العربي والمنطق الأرسطي / الأزهري الريحاني / منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين / الجزائر / ٢٠٠١.

١٣–النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي في لفظه وشرح أبياته و غريبه / تحقيق : رشيد بلحبيب / ١ / المغرب / ١٩٩٩.

١٤–همع الهوامع في شرح جمع الجوامع / جلال الدين السيوطي / تحقيق عبد السلام محمد هارون والدكتور عبد العال سالم مكرم /دار البحوث العلمية / الكويت / ١٩٧٥ – ١٩٧٧ م.

الصحف والمجلات:

١ –البعد التداولي عند سيبويه / مقبول إدريس / مجلة عالم الفكر / المجلد ٣٣ في يوليو ٢٠٠٥.

٢ –التداولية اللسانية / د. السعيد بو بطاجين (الجزائر) مسحوب من الانترنيت | صحيفة الأسبوع / العدد ٩٢٣ في ١١ / ٩ / ٢٠٠٤.

٣–الحوار والاختلاف / خصائص وضوابط / مجلة قضايا إسلامية معاصرة / العدد ١٦ / ١٧ في ٢٠٠١.

٤– ما التداولية ؟ محور الأديب النقدي / صحيفة الأديب / العدد ٥٨ / السنة الثانية في ٩ / ٢ / ٢٠٠٥.

٥–ملاحظات حول رسالة سيبويه / المنصف عاشور / حوليات كلية الآداب / تونس ١٩٨٩ .